بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ

حسن بن عبد الوهاب بن مرزوق البنا

حفظه الله

بسم الله، والحمدُ لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فقد يسَّر الله ﷻ لي أن أطلعَ على هذا الكتاب «**التعصُّب للشيوخ**» وأن أقرأه قراءة كاملة، وقد ألفيته كتابًا عظيم الفائدة، لمعالجته لآفة تُعتبر من أخطر الآفات التي تؤدي إلى تَفرُّق الأمة إلى شيع وأحزاب.

فإن التعصُّب للشيخ والتحزب حوله لهو أثر من آثار التصوف، والذي هو ربيب الرفض، والذي يَجعل الشيخ مُحجِّمًا لحركات وأفكار وعقيدة الْمُريد، أمَّا أهل السُّنة فإن لهم صبغة خاصة ﴿ o n m l k j u t s r q p ﴾ [البقرة: ١٣٨]. فهم وإن احترموا الشيوخ الذين تعلَّموا على أيديهم، وتأدبوا معهم بآداب طالب العلم، فهذا لا يقتضي أن يتعصَّبوا لهم بغير حق.

لكن مَكْمَنُ الْخُطورة أنه أثناء تحصيل الطلاب العلم على يد الشيخ يُخلص لهم الشيخ، ويُخلصونَ له، فيَحدث بينهم تآلف قلبي، وربما يتعلق به البعض إلى درجة يتجاوزون بها القواعد الشرعية بين الشيخ وطُلاَّب العلم، فتتحول هذه العلاقة إلى مذهبية حزبية.

وإن الغلو في الأموات من الصالحين يتبعه بالأولى الغلو في الأحياء منهم، فلا ينبغي التقليل من شأن هذه الآفة أو اعتبارها أمرًا عاديًا، فإن الناظر في آيات القرآن وصحيح السنة يَجد أن فتنة الناس بالناس قد بدأت بمثل هذا، فتعصَّب النصارى للمسيح # حتَّى جعلوه إلهًا مع الله، وتعصَّبت طائفةٌ من هذه الأمة لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، حتى كفَّروا غالب الصحابة الآخرين، بل وصل الأمر بهم إلَى تأليه علي -رضي الله عنه-، كما فعل النصارى مع المسيح #، وصاروا من الفِرَق الضالة.

وما زالت هذه النعرات والفجوات موجودة في الأمة لقلة الحرص على العلم النافع، وانصراف الناس عن حُسن التأسي بالسلف الكرام مع ذهاب القُدوة الصالحة، واشتداد النعرات الحزبية.

والتقليد هو أحد آثار التعصُّب الذميم، والله ﷻ يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] الآية. وأولو الأمر هم: العلماء والأمراء، والطاعة لأولي الأمر مُقيّدة بالمعروف، فليست الطاعة في المعروف هي التقليد الْمَنْهِيِّ عنه شرعًا، والذي هو قبول قول الغير بدون حُجة، بل هي طاعة مُقيّدة بالحجج من الكتاب

والسنة.

ويزداد ظهور الاحتياج إلى أهل العلم وضرورتهم عند النوازل والأزمات فعندها يجب التزام غرزهم، ولا يَجوز مُخالفتهم والخروج عن أقوالهم بغير دليل واضح، فإن الخروج عليهم خروج عن الجماعة وإثارة للفتنة.

ولا مانع أن يُحب الرجل قومه وعشيرته دون أن يتعصّب لهم تعصُّبًا عرقيًّا أو طائفيًّا، وكذلك لا مانع أن يُحِبّ شيخه وأستاذه الذي علَّمه وأفاده ما دام على المذهب الحق، مع تَجريد الولاء والبراء لله وحده وتَجريد المتابعة للرسول ﷺ، أمَّا إن خالف شيخه الحق، فلا يَجوز أن يَكذب عنه بالباطل، وأن يُصر على ذلك، فإن هذا من عُبيّة الجاهلية التي ليست من صبغة أهل السنة.

والتعصُّب ضد الحق إذا لم يكن عن جهل فإنه يكون عن هوى في النفس، كما هو صنيع أهل الأهواء من الصوفية والرافضة بالغلو في مشايخهم، وفي المقبورين من أهل البيت، فهم لا يقبلونَ كلمة حقٍّ في أئمتهم أبدًا مهما جئتهم بالأدلة، فقد انغلقت قلوبهم على أنَّ أئمتهم على الحق الْمُبين؛ لأنهم يعتقدون بعصمة الأئمة.

ثم إنه من حجج المتعصِّبين قولهم لمن جاءهم بالحجج والأدلة من كلام العلماء لن تكون أفقه من شيخنا أو أفهم منه لحجج العلماء، فمن قال هذا فانفض يدك منه، واعلم أنه من غُلاة المتعصبين.

والبعض يعتقد أن تحذير العلماء من خطأ لشيخهم نابع عن وقيعة أحدثها البعض بين الشيخ والعلماء، وكأنها خلافات شخصية، وكأن العلماء يغتابون الشيخ في عرضه وشخصه لا في منهجه.

وقد كان علماء الجرح والتعديل يقول أحدهم لصنوه في العلم: «هيا بنا نغتاب ساعة»، أي يتكلمون في رواة الأحاديث بقولهم: هذا كذاب، هذا مُدلس، هذا عنده أوهام... إلخ. وهي قاعدة ثابتة في السابقين واللاحقين لا تتغير بتغُّير الزمان، وتشمل رواة الحديث وغيرهم من أهل العلم والدعوة إذا خالف في أصول الاعتقاد والمنهج.

وهذا التراث العظيم من كلام أئمة الجرح والتعديل، وقواعد علوم الحديث هو الذي حفظ الله بسببه لهذه الأمة دينها الصحيح، ولولا ذلك لاندثر الحق -حاشا لله-.

ويجب على كل سلفي أن يتحرى الإنصاف، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولكن قد تتنازع الإنسان -لضعفه- عوامل أخرى تجعله يتردد في الحسم في الخلاف رغم علمه به، ومن هذه العوامل: أنه يستصعب تَجريح شيخه فيما قد يكون خالفه من أصول المنهج الحق؛ حيث إن شيخه له سبق في الدعوة الخالصة لله وقد هدى الله على يديه الكثيرين، ثم هو من تلاميذه وقد تعلَّم على يديه، فننصح لهؤلاء بالإنصاف ابتغاء وجه الله حتى يُعرف الحق ويُدحض الباطل، فيقبل المسلم الحق من شيخه ومن غيره من الأشياخ، ولنذكر في ذلك ما كتبه المصنف -جزاه الله خيرًا- من مقولة الشيخ الفاضل صديق حسن القنوجي في كتابه «أبجد العلوم» (١/٣٦٢):

«وأهم ما يحصل لك أن تكون منصفًا غير متعصِّب في شيء من هذه الشريعة فلا تمحق بركتها بالتعصُّب لعالم من علماء الإسلام بأن تجعل رأيه واجتهاده حجة عليك وعلى سائر العباد، فإنه وإن فَضَلَك

بنوع من العلم وفاق عليك بمدرك من الفهم فهو لم يخرج بذلك عن كونه محكومًا عليه مُتعبدًا بما أنت متعبد به، بل الواجب عليك أن تعترف له بالسبق وعلو الدرجة اللائقة به في العلم مُعتقدًا أن ذلك هو الذي لا يجب عليك غيره ولا يلزمه سواه، **وليس لك أن تعتقد أن صوابه صواب لك أو خطأه خطأ عليك** بل عليك الاجتهاد[1] والجد حتى تبلغ إلى ما بلغ إليه من أخذ الأحكام الشرعية من ذلك المعدن الذي لا معدن سواه[2]، والموطن الذي هو أول الفكر وآخر العمل، **فإذا وطّنت نفسك على الإنصاف وعدم التعصُّب لمذهب من المذاهب، ولا لعالم من العلماء فقد فزت بأعظم فوائد العلم وربحت بأنفس فرائده...** ». اهـ

وقد ذكر المصنِّف كواشف المتعصِّبين، فوفِّق فيما ذكر، وكان مِمَّا ذكر: أن المتعصِّب لشيخه تمنعه عقيدته في شيخه من قبول الحق -ولو ظهر الدليل-، إذا كان هذا الحق مُخالفًا لما قرره شيخه، وقد يدعوه تعصبه لشيخه إلى المبالغة في تزييف هذا الحق، وإظهار إبطاله.

ومن هذه الكواشف: أن المتعصِّبين قد أوتوا الجدل بالباطل، مع المراء، والتزيد والتكلف والمخاصمة، ونقل المؤلِّف -جزاه الله خيرًا- عن الحافظ ابن رجب ~ ما قاله في «جامع العلوم والحكم» (ص٤٣٢): «فإذا كان الرجل ذا قُدرة عند الخصومة -سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا- **على أن ينتصر للباطل، ويخيل للسامع أنه حق ويوهن الحق، ويخرجه في صورة الباطل، كان ذلك من أقبح المحرمات، وأخبث خصال النفاق**». اهـ

وصدق ابن حبان لمَّا قال في «روضة العقلاء» (ص٧٩): «المراء أخو الشنآن كما أن المناقشة[3] أخت العداوة، والمراء قليل نفعه، كثير شره». اهـ

وأورد المصنِّف -جزاه الله خيرًا- عدة آثار ونقولات هامة في بيان منهج السلف الصالح في ترك مجادلة أهل الأهواء وعدم الدخول معهم في خصومات مبنية على المراء والتزيد والمغالبة، وحب الزعامة، ونصرة النفس دون الحق، مِمَّا يقسي القلب، ويزيد المرء بُعدًا عن الصفاء والنقاء والمروءة والتقوى.

وبيَّن أيضًا بجلاء ضوابط دخول العالم الرباني مع أهل الأهواء في مناظرة بقصد تجلية الحق، وإقامة الحجة ودفع الشُّبهة، وأردف هذا بذكر آداب الجدل بإيجاز غير مخل من خلال ما ذكره الخطيب في «الفقيه والمتفقه».

وأشار المؤلف أيضًا إلى أن من كواشف المتعصِّبين أنه مهما كنت مؤدبًا في بيان خطأ الشيخ المتعصّب له بالباطل، فلم تسبه بل بينت الحق بالدليل الصريح، فإن أتباعه المتعصِّبين له يمقتون كلامك لمجرد بيانك خطأ شيخهم، وكأنهم يقولون: إن كلامك ثقيل، رغم أنه لا يعيبك شرعًا، لكن الموازين قد اختلت عند المتعصِّبين، وقد أحسن المؤلف -بارك الله في جهده- بالاستشهاد بكلام فضيلة الشيخ العلامة ربيع بن هادي -

---

([1]) بسؤالك لغيره من أهل العلم الكبار من أهل السنة والجماعة.
([2]) وهو مَعين الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.
([3]) أي: المناقشة في الحق الأبلج.

سلمه الله- الذي ذكره في كتابه «التعصُّب الذميم وآثاره»، ثم زاد الأمر وضوحًا بذكر نصيحة فضيلته إلى طلبة العلم بمصر، والتي مؤداها نصيحة للعلماء وطلبة العلم أن يكونوا في غاية التقوى والمراقبة لله -سبحانه وتعالى-، والقيام بدينه Q، مع تَحري العدل والإنصاف في قضايا الخلاف، ونبذ التعصُّب للأشخاص والأهواء.

وأما عن حكم أهل العلم على المتعصِّب الذي يتبين له الهدى، ثم يتركه تقليداً وتعصُّبًا أو بُغضًا ومعاداة لأصحابه لمخالفتهم لشيخه، فهذا أقل أحواله أن يكون فاسقًا[٤] كما ذكر ذلك ابن القيم في «الطرق الحكمية».

وجاء في قول بعض أهل العلم أن البدعة تكون إمَّا لتعصُّب أو لسفه، وأقول: إن التعصُّب عن علم أشد وقعًا من التعصُّب عن سفه وقلة عقل[٥].

وكذلك أبان المصنف عن جواز الإنكار بشدة على المتعصِّب بالباطل، والإصرار على وصفه بصفته، واحتجّ لذلك بقول أُسيد -رضي الله عنه- لمن تعصَّب لابن أُبَي المنافق: «كذبت إنك منافق تُجادل عن المنافقين»، فيما نقله عن القاضي عياض من طرح التثريب للعراقي (٨/٥١).

ثم عرَّج المصنِّف -بارك الله في جهده- إلى ذكر عدد من آثار السلف في ذمِّ التعصُّب بالباطل والنهي عنه، نحو قول معاذ -رضي الله عنه-: «**وأحذركم زيغة الحكيم**[٦] **فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق**». إلى آخر الأقوال والآثار الهامة التي نقلها، والتي في الالتزام بها الشفاء من داء التعصُّب.

وأخيرًا أجاد المصنِّف أبو عبد الأعلى -سدَّد الله خطاه- حصر الآثار الوخيمة للتعصُّب الذميم، والتي من أخطرها اتباع منهج الموازنات الفاسد المناقض للشرع والفطرة ثم العقل، كما بيَّن ذلك سماحة الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز، والعلامة المحدِّث الألباني -رحمهما الله-.

ومن مساوئ التعصُّب الذميم أيضًا: التلبس بمنهج التمييع للقضايا فلا تظهر لها حقيقة، والتنقص من أهل الحق المخالفين للشيخ المتعصَّب له، وبَخس فضلهم، والتلفظ بعبارات سيئة طعنًا فيهم بغير حق مِمَّا يأنف منه اللبيب الرشيد.

هذا؛ وقد آثرت أن أجعل هذه المقدمة مُلخصًا لمواضيع الكتاب، وإبرازًا للعناصر الرئيسة فيه لتكون عونًا للقارئ على تلمُس أبعاد هذه القضية الخطيرة التي ناقشها الكتاب، وسوف يلحظ القارئ أيضًا أني قمت خلال هذه المقدمة باقتباس بعض تعبيرات المصنف، وشيئًا كثيرًا من استشهاداته، حيث إني لمستها

---

(4) فسق دون فسق.

(5) وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم، وقد بلغ من سفه المتعصِّبين لأشياخهم بغير حق أنهم يرفضون ما جاء في مذهب غير مذهبهم، ولو كان عليه الأدلة تعصُّبًا لآراء شيخهم مع أنهم يقولون عن أهل العلم: وكُلُّهم من رسول الله ملتمآ، فانظر إلى هذا التناقض وفقك الله.

(6) قال العظيم آبادي في "عون المعبود÷ (١٢/٢٣٧): "زيغة الحكيم: أي انحراف العالم عن الحق، والمعنى: أحذركم مما صدر من لسان العلماء من الزيغة والزلة وخلاف الحق، فلا تتبعوه÷.

تعبيرات سديدة واستشهادات جيدة تُنبئ -إن شاء الله- عن دقة العبارة عند المصنف وعن تمكنه من استخراج الشواهد الصائبة من كلام أهل العلم، وهاتان الصفتان تَجتمعان بحول الله في العبد الموفّق، وأحسبه كذلك، ولا نزكيه على الله، وهو -إن شاء الله- جاد مُجتهد في الترقي في مدارج العلم النافع -نفع الله به وزاده علمًا-.

وقد قدّمت هذه المقدمة لهذا الكتاب الطيب وأوجهها كنصيحة لكل مسلم ومسلمة.

وصل اللهم على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه فقير عفو ربه

حسن عبد الوهاب البنا

المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وعضو التوعية الإسلامية بها (سابقًا)

(١٦) رجب (١٤٢٥هـ)، (٣١) من أغسطس (٢٠٠٤) ميت عقبة من أعمال الجيزة

ثم أعدت قراءة الكتاب بعد الإضافات الجديدة وقمت بتنقيح المقدمة مع شيء من الزيادة، وانتهيت منها في عصر الجمعة (٢٨) من شعبان (١٤٢٩هـ)، (٢٩) من أغسطس (٢٠٠٨م).

[õ õ õ]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ

هشام بن موسى العارف المقدسي الفلسطيني

حفظه الله

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

نقول إننا على منهاج النبوة والسلف؛ لأنه منهاج ربَّاني، موفق أتباعه للسعادة، ومنهاج النبوة والسلف منهاج الحجة والبيان، منهاج الفطرة السويَّة وفيه كل أسباب الأمان، فمن كان على منهاج النبوة والسلف كان على الحق، وكان على الجادة في عبادة ربه، ومن ترك منهاج النبوة والسلف بعد العلم والبينة كان على باطل في اعتقاده، وضلال في عبادة ربه. لذا فإن معرفة الحق تحتاج إلى إخلاص لله وعلم على بصيرة وصبر وثبات.

قال الإمام الأوزاعي ~:

١) «**اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم**».

والحق نقيض الباطل، **وأصل الحق**: المطابقة والموافقة، والله تعالى حثَّ على التمسك بالحق والتواصي به في سورة العصر فقال:

٢) ﴿ . ﴾ [العصر:٣].

وكان الصحابة -رضوان الله عنهم- يوصي بعضهم بعضًا بالصبر على الحق وطاعة الله. لذلك:

٣) «**كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر** ﴿ ! " # $ % & ﴾، **ثم يسلم أحدهما على الآخر**». [الصحيحة (٢٦٤٨)]

قال ابن تيمية ~:

٤) «**ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به، ويتنعم به، ويغتذي به، وهو اليقين**».

[مجموع الفتاوى (١٢١/٢٨)]

ويحتاج الثبات على الحق للصبر، فإذا صبر الآمر بالحق صار إلى كمال الربح، لذا كان التواصي

بالصبر عقب التواصي بالحق في سورة العصر، وليعلم السامع أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبدًا، صرّح بذلك النبي ﷺ في أكثر من حديث صحيح.

إن التمسك بالحق في الناس أمر عزيز، كذلك الصبر من أجل الثبات على الحق أيضًا عزيز، وإن التكذيب بالحق خسران في الدنيا والآخرة، ويورث في الدنيا الفوضى، والاضطراب، واختلاط الأمور، لأنه منافٍ للفطرة، فالناس فطروا على محبة الحق وإرادته، كما قال ابن تيمية ~:

٥) «**والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه**». [مجموع الفتاوى (١٠/٨٨)]

والوقوع بجريمة تكذيب الحق الذي مصدره التعصب المقيت تحريف للفطرة السليمة، وبالتالي الدخول بالعبثية المرفوضة؛ لأن الكذب على الحق، أو التكذيب بالحق تحطيم للمجتمع، وتهييج للضلال، وتثوير للباطل، كما قال تعالى في سورة (ق):

٦) ﴿ F G H I J K L M N ﴾ [ق:٥].

يعني: لمّا تركوا الحق وعدلوا عنه؛ تعصُّبًا لاعتقاداتهم الضالة، مرج عليهم أمرهم والتبس، وهذا عقاب من تفلَّت من اتباع الحق، أو صدَّ عنه، فأصحاب هذا المسلك المشين لا يدرون ما يقولون وما يفعلون، قال ابن القيم ~:

٧) «**بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود**». [التبيان في أقسام القرآن (١/٧٥)]

والتعصُّب للعقائد، أو التعصب للمذاهب، أو التعصب للأحزاب، أو التعصب للأشخاص نقيض الحق؛ لأن سبيل الذي على الحق خلاف سبيل المتعصِّب؛ ذلك لأن الذي على الحق متبع على بصيرة، وسبيل المتعصِّب اتباع الهوى، فالمتعصِّب مقلِّد أعْمَى لا يحسب للنتائج حسابًا ولا يرصد لأفعاله ما سيقع فيه من الويلات والنقم، وشتان بين الذي في النور والذي في الظلام.

والمتعصِّب حين يواجه الدعوة الصحيحة ويصر على ضلاله في التعصُّب يتحمل إثم فعله في الدنيا، وسيلقى جرّاء فعله عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة؛ لتعصُّبه واستكباره عن الحق، وأول هذا العقاب هو رؤيته الحق باطلاً، والباطل حقًّا، كما قال تعالى في سورة الأعراف:

٨) ﴿ F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X
Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e f g h i j ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إن موضوع التعصُّب الذي أفرد له فضيلة الشيخ أبو عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان المصري -أعلى الله تعالى مراتبه في الدنيا والآخرة-، والذي خصّ بحثه في التعصُّب للشيوخ فكان موضوعًا ذا أهمية، في وقت صار تقليد حدثاء الأسنان للأصاغر سُنَّة في زمن الفتن، فإلى الله

المشتكى مما عمَّت به البلوى في بلادنا، فقد طار إلى هذا التعصُّب المقيت الشباب -إلا من رحم ربي- بسبب ضعفهم العلمي أو بسبب ضعف صدق اتباعهم للحق، وقد يكون من الأسباب المهمة في تعصُّب المغفلين لشيوخهم هو **خطة المشيخة السيئة في تعليق من أراد الانتساب إلى شرع الله بشخوصهم دون تعليقهم بالحق**، وهذه آفة خطيرة وهي فعل أهل البدع والضلالات وديدن الصوفية الطرقية الضالة، التي حوّلت تلاميذها إلى مريدين ضائعين **لاهثين وراء مشايخهم بالتقليد الأعمى والتعصب المقيت**، وقد حَذَّر العلماء من العصبيات على شتى ألوانها وأشكالها في كل وقت وزمن، وحذَّروا من شناعة التعصُّب للشيوخ؛ لأنه خلاف الحق ونقيضه، ولم تكن تربية النبي ﷺ لأصحابه -رضوان الله عنهم- إلا تربية سوّية تلائم الفطرة، وتحبب في الحق، وتعتني بالنفس أن تبقى زكية نظيفة من أدران التعلق بالأشخاص، أو التعصُّب لأي فرد كان.

لكن يبدو لي -في الوقت الحاضر- أن صناعة التعليق بالأشخاص لدى الشيوخ والدعاة لم تقف عند الصوفية الطرقية بكافة أشكالها وأطيافها بل امتد إلى جهات أخرى فتلمذت تلاميذها أن يصير الواحد منهم مريدًا طائعًا أعمى، ومقلِّدًا مفلسًا من البصيرة، ترفع رايات الدين -بشعارات برّاقة- وتسعى إلى تعليق الشباب بشخصها من أجل السير بهم إلى دروب مظلمة من الأوهام والأباطيل والأماني الفارغة لإشباع أهوائهم، وقد استغلوا هؤلاء الأحداث لاندفاعهم وحماستهم فأوردوهم الردى وقتلوهم بآفة التعصُّب، وبالتالي فإن هؤلاء ضحايا التعصُّب يتحولون في المجتمع إلى آفات خطيرة تعصف به وتضرب في ثناياه ضربًا يحملهم إلى شن هجوم عنيف على الحق وأهله، إذا خولف شيخهم أو انتقد؛ لأنهم يرون في النهاية أن الحق يمزق وثن تعصُّبهم وضلالهم ويحول بينهم وبين آمالهم للحصول على ما يخططون له من خلال نظرتهم إلى من حولهم بمنظار التعصُّب الذميم الذي ربّاهم عليه شيخهم.

فأجاد فضيلة الشيخ أبو عبد الأعلى -حفظه الله- في عرض موضوع التعصُّب للشيوخ ونبَّه على خطيرة يقع فيها الشباب المعاصر، ونقل من أقوال العلماء، وبوّب للبحث ما يسهل للباحث أن يتعقب تحذيره من هذا اللون من التعصُّب حتى يكون الشباب على بصيرة من هذا الداء العضال الذي يكاد يفتك بالأمة بسبب حماقة المنتسبين إلى المشيخة، أو المنتسبين إلى الاشتهار للعمل في حقل الدعوة -تزييفًا- الذين مكنوا الشباب من شخوصهم بدلاً من أن يمكنوهم من معرفة الحق ومحبته والتمسك به وأن يكونوا على بصيرة من دينهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ~:

٩) «**وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقى بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الأخوة المتعاونين على البر والتقوى كما قال تعالى:**

١٠) ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢].

وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريده، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيزخان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقًا وليًّا، ومن خالفهم عدوًّا بغيضًا، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله، بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرِّموا ما حَرَّم الله ورسوله، ويرعوا حقوق المعلمين كما أمر الله ورسوله، فان كان أستاذ أحد مظلومًا نصره، وإن كان ظالمًا لم يعاونه على الظلم بل يمنعه منه كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

١١) «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» [صحيح الجامع (**١٥٠٢**)]

وقال:

١٢) «**وإذا وقع بين معلم ومعلم، أو تلميذ وتلميذ أو معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة، لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده، وطاعة رسوله، واتباع الحق والقيام بالقسط**». قال تعالى:

١٣) ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 1 2 3
4 5 6 7 8 : ; < = > @ A B C D E F G H I ﴾ [النساء: **١٣٥**].

يقال: لوى يلوي لسانه فيخبر بالكذب والإعراض أن يكتم الحق، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس، ومن مال صاحبه سواء كان الحق له أو عليه فقد حكم بحكم الجاهلية وخرج عن حكم الله ورسوله، والواجب على جميعهم أن يكونوا يدًا واحدة مع المحق على المبطل، فيكون المعظَّم عندهم من عظَّمه الله ورسوله، والمقدَّم عندهم من قدَّمه الله ورسوله، والمحبوب عندهم من أحبه الله ورسوله، والمهان عندهم من أهانه الله ورسوله، بحسب ما يرضي الله ورسوله لا بحسب الأهواء فإنه من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، فهذا هو الأصل الذي عليه الاعتماد وحينئذ فلا حاجة إلى تفرقهم وتشيعهم، قال تعالى:

١٤) ﴿ I J K L M N O P Q R ﴾ [الأنعام: **١٥٩**].

وقال تعالى:

١٥) ﴿ v w x y z { | } ~ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران: **١٠٥**]. انتهى كلام ابن تيمية ~، [مجموع الفتاوى (**٢٨/١٥**- ١٧)]

ولا شك أن المتعصِّب يوم القيامة سيلقى الندم بسبب جرم التعصُّب، قال تعالى في سورة الفرقان:

١٦) ﴿ g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z
} | { ~ إِذۡ جَآءَنِیۗ وَكَانَ ٱلشَّیۡطَـٰنُ لِلۡإِنسَـٰنِ خَذُولࣰا ﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

ولا شك أن التفرق الذي تقع فيه الأمة وحذّر منه المصطفى ﷺ ظلم سببه التعصُّب، وافترق التعصُّب بعيدًا عن الحق إلى فرق شتَّى، فوقع البغض في الأمة ووقعت الفرقة فاستحقت مقت الله، فالعصبيات الدينية المخالفة للكتاب والسنة ممقوتة، والعصبيات القومية والبلدية على شتى أشكالها وألوانها ممقوتة، والعصبيات المذهبية ممقوتة، والعصبيات القبلية ممقوتة، والعصبيات العشائرية ممقوتة؛ لأنها كلها دعوات جاهلية منتنة أنكرها النبي ﷺ، ولن تكتب النجاة إلا لمن لزم الحق وابتعد عن هوى التعصب.

ولا بد أن يكون لنا من الصحابة -رضوان الله عنهم- العبرة في التبرؤ من العصبية فقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر أنه لما بلغه خبر الذين نفوا القدر قال:

١٧) «**فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر**».

والنبي ﷺ أمر بقتل الخوارج لتعصُّبهم لضلالهم، وانتقاصهم الصحابة، فقد حملهم شدة تعصُّبهم إلى تأويل النصوص تأويلات فاسدة بعيدة كل البعد عن الهدى، بل يستبيحون بتأويلاتهم الضالة تكفير المسلمين ويستحلون دماءهم بالقتل والتفجير، وحمل العلماء على أهل البدع والخرافات، وحملوا على علم الكلام، وحملوا على من تعصَّب للفلاسفة، ولا شك أن المبتدعة على شتى أطيافهم لشدة تعصُّبهم لا يفلحون -إلا من رحم ربي- بالتوبة مصداقًا لقول النبي ﷺ:

١٨) «**إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة**». [الصحيحة (١٦٢٠)]

وفي رواية -صحيحة-:

(١٩) «**إن الله حجب التوبة عن صاحب كل بدعة**». [صحيح الترغيب والترهيب (**٥٤**)]

فصاحب البدعة منازع لله في الحكم، فحري به أن لا يوفق للتوبة؛ لأنه متعصِّب لما هو خلاف السنة والحق، فليس من السهل عليه أن يتوب من بدعته، لأن المبتدع الذي يتخذ دينًا لم يشرعه الله ولا رسوله، يكون متعصِّبًا قد زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا، كما قال الله تعالى في سورة فاطر:

٢٠) ﴿] ^ _ ` a b c .... ﴾ [فاطر: ٨].

قال الشيخ العلامة ربيع المدخلي -حفظه الله-:

(٢١) «**فالذي يلزمنا معشر الإخوة أن نفتش أنفسنا، فمن وجد في نفسه شيئًا من هذا المرض؛ فعليه أن يتدارك نفسه، ويقبل على العلاج الناجع، ويبحث دائمًا على الحق؛ لينجو بنفسه من وَهْدة التعصُّب الأعمى الذي قد يؤدي إلى الشرك بالله -تبارك وتعالى- أو يؤدي إلى الضلال الخطير**». [التعصُّب الذميم

وآثاره، (ص٤٦)]

من المفاسد التي أنتجها بلاء التعصُّب وترك لزوم الحق ما أشار إليه العلامة شيخنا ربيع المدخلي ـ حفظه الله ـ في «التعصُّب الذميم» (أذكر لك عناوينها):

١) مخالفة النصوص الثابتة من الكتاب والسنة.

٢) كثرة الأحاديث الضعيفة والموضوعة والاحتجاج بها.

٣) تقديم أقوال العلماء المتأخرين على أقوال الأئمة المتقدمين.

٤) الانحباس في مذهب واحد.

٥) خلو كثير من الكتب المذهبية من الأدلة الشرعية.

٦) شيوع التقليد والجمود.

٧) التشدد في بعض المسائل. [التعصُّب الذميم وآثاره]

*** وأضيف إليها:**

١) التعلق بالكتب الفكرية القومية والسياسية.

٢) الانتصار للأصاغر وترك الأكابر.

٣) الحماسة والاندفاع والمسارعة للفتوى قبل التضلع بالعلم الشرعي.

٤) الكذب والمخادعة والابتداع.

٥) الخصومات من غير حجة علمية.

هذا، وإن من أسوأ ما خلَّفه بلاء التعصُّب بشكل عام محاربة شرع الله تعالى، وهناك فرق في أمة محمد ﷺ لتعصُّبهم لأقوال أئمتهم المخالفة لشرع الله هـدَّدوا أهـل السنة ومحبيها -بسبب اتباعهم الحق- بالقتل، أو تتبعوهم حتى أخرجوهم من ديارهم، وما سبب ذلك إلا لتولد الدخن الذي افتعله داء التعصُّب.

وفي ختام تقريظي لكتاب فضيلة الشيخ أبي عبد الأعلى خالد بن محمد بن عثمان المصري - حفظه الله-، وثبتنا وإياه على الحق-، والذي سَمَّاه: «**التعصُّب للشيوخ**»، فإني أشكره على هذا التأليف الماتع، وأسأل الله تعالى أن يمكِّنه دائمًا وأبدًا النصح للشباب المسلم أن يكونوا أتباعًا للحق الذي يُعرَف من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة وفق فهم السلف الصالح.

وكتبه

هشام بن فهمي بن موسى العارف

رئيس لجنة الدعوة السلفية بالمركز العلمي للدراسات المنهجية - رام الله - القدس

(١١/٨/١٤٢٩هـ) الموافق (١٣/٨/٢٠٠٨)

[õ õ õ]

S بسم الله الرحمن الرحيم G

الْمُقدمة

إن الْحَمد لله نَحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحمَّدًا عبده ورسوله.

﴿ 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7

8 : ; < = > ﴾ [النساء:١].

﴿ u v w x y z { | } ~ © لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الحديث كلام الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتُها، وكُلَّ محدثة بدعة، وكُلَّ بدعة ضلالة.

وبعد:

فإن التعصُّب للشيخ -أي المعلِّم أو المتبوع- وتقديسه[٧] داءٌ عضال دبَّ في أوصال الأمم السابقة ثم سرى في هذه الأمة، ومزق شمل أجيال بعد أجيال، وحاد بفئام من الناس عن طريق الجادة والصواب.

وترى هذا الداء الوبيل نابعًا -في كثير من الأحيان- من عاطفة مشوبة بالهوى يحملها المتَّبعون تجاه متبوعهم، وهذه العاطفة هي محبة هذا المتبوع محبة تقديس وإجلال تصل في أقصى درجات الغلو إلى اعتقاد ألوهية هذا المتبوع مثلما اعتقد النصارى في المسيح #، وبدرجة أقل في الغلو إلى اعتقاد عصمة هذا المتبوع، وعدم قبول وقوع الخطأ منه.

وفي درجة مقاربة لسابقتها: يصير الشيخ المتبوع معظَّمًا مقدَّسًا، وإن لم يعتقدوا عصمته، لكن لا يقبلون أن يُنتَّقد أو أن يُخطَّأ بأي حال، حتى وإن وافقك البعض منهم على تخطئته، فإنهم يعتذرون له بشتى الأعذار الغير مقبولة[٨]، ولا يقبلون أن يُحذَّر من خطئه صيانة لمكانته، وخوفًا من غضبه[٩]، وإبقاءً لمودته، وهذا من رواسب تقديس الأحبار والرهبان.

بل يتهمون من يبين خطأه أنه صاحب نية فاسدة، وأنه يريد هدمه، أو يريد التسلق على أكتافه، والشهرة على حساب عرضه.

ولا سيما لو وقع على هذا الشيخ ظلم، أو اضطهاد، تزيد عاطفة متَّبعيه له، ويرفعونه إلى مرتبة عالية، قد تضاهي مرتبة الأنبياء، أو الأولياء، ويتغافلون عن أخطائه أو عن زيغه عن الحق المبين، ومن ثَمَّ ينشرون آثاره -بما فيها من زيغ-، ولا يقبلون تحذير محذِّر من هذا الزيغ، ويغمطون الناصحين لهم أيَّما غمط.

وهذا الارتباط الوجداني العاطفي بالشيخ المعلِّم وضع بذوره في هذه الأمة الصوفية، ويظهر هذا في مقولة أبي حامد الغزالي في الإحياء (٦٥/٣): «فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة[١٠]... فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة».

ووضع الصوفية ضوابط علاقة المريد بشيخه، والتي تجعل هذا الشيخ في مرتبة تصل إلى تفضيل كلامه على سُنّة النبي ﷺ، وقد تصل إلى مرتبة الشرك في الطاعة لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ © وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

فتحس أن هذا التعصُّب، وأن هذه الحزبية، كأنهما قد استمدَا أصولهما من الوثنية القديمة المتمثلة في تقديس الصالحين والزعماء ورفعهم إلى مرتبة القداسة الإلهية؛ ومن هذه الوثنية اليونانية

([7]) أي: تقديس آرائه وفهمه للدين، فضلاً عن تقديس شخصه.
([8]) وإن كانت مقبولة في نظرهم.
([9]) الذي ربما يؤدي إلى غضب الله عليهم.
([10]) وهذا لا بأس به إذا كان شيخه يلتزم بالكتاب والسنة بفقه سلف الأمة، على أن لا يقتدي بقول شيخه المخالف للدليل.

والإغريقية والبوذية استمدت الصوفية أصولها.

حقًّا إن تقديس الرجال داءٌ عضال قد فتك بالأمم السابقة ومزَّقها كل ممزق، ثم سرى مفعوله في هذه الأمة قرنًا بعد قرن وجيلاً بعد جيل حتى قطعها شيعًا وأحزابًا متناحرة.

ونحن ما نزال نعاني من هذه الأحزاب المتناحرة والجماعات البدعية التي مزَّقت الأمة وفرَّقت الدعوة، إذ بنا نفاجأ بهذا الداء الوبيل الذي قد يصيب بعض المنتسبين ظاهرًا إلى دعوة الحق -الدعوة السلفية-[11].

وفي هذا الجزء سوف نحاول كشف اللثام عن هذا الداء، وبيان طرائق علاجه، لعلَّ الله سبحانه يصلح الأحوال وتزول هذه الفتنة، أو تنحسر في أضيق الحدود.

وقد بدأت في كتابة هذا البحث بعدما ابتليت بطائفة من هؤلاء المتعصِّبين، وأوذيت منهم أشد الأذى، وعاينت بنفسي خطورة هذا الداء، وليس المخبر كالمعاين.

ولقد اصطلح بعض أهل العلم على تقسيم القائمين على دعوة الناس، وتعليمهم إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة العلماء الكبار.

الطبقة الثانية: طبقة طلبة العلم.

الطبقة الثالثة: طبقة مَنْ هم ليسوا من طلبة العلم، إنما هم من العامة المحبين لأهل العلم وطلبته، فتتلمسهم في مجالس العلم طالبين مجالسة القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم، وفي الوقت نفسه يسعون مع ضعف حصيلتهم إلى تبليغ ما وصل إليهم من الهدى.

وكما قال الشافعي ~ في الرسالة (٤٤): «والناس في العلم طبقات».

وقال مسلم في مقدِّمة صحيحه: «وفي مثل مجرى هؤلاء إذا وازنت بين الأقران كابن عون وأيوب السختياني مع عوف بن أبي جميلة وأشعث الحمراني وهما صاحبا الحسن وابن سيرين، كما أن ابن عون وأيوب صاحباهما إلا أن البون بينهما وبين هذين بعيد في كمال الفضل وصحة النقل وإن كان عوف وأشعث غير مدفوعين عن صدق وأمانة عند أهل العلم، ولكن الحال ما وصفنا من المنزلة عند أهل العلم، وإنما مثَّلنا هؤلاء في التسمية ليكون تمثيلهم سمة يصدر عن فهمها من غبي عليه طريق أهل العلم في ترتيب أهله فيه، فلا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته، ولا يرفع متضع القدر في العلم فوق منزلته، ويعطى كل ذي حق فيه حقه وينزل منزلته، وقد ذكر عن عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم». اهـ

([11]) وسرعان ما يذوب هذا الانتساب الظاهري للسلفية في بوتقة هذا التعصُّب، ويتحول هذا المتعصِّب إلى حزبي جلد يناطح السلفيين -إلا من تداركه الله برحمته وقبل النصح فترك هذا التعصب المقيت-.

ولقد تركزت غالب طبقة العلماء في السنوات القريبة في بلاد الحرمين: المملكة العربية السعودية -حرسها الله-[١٢]، وبات كثير من البلدان الإسلامية يخلو من علماء كبار إلا القليل، وصار الوضع في هذه البلدان أن يلتف أهل الطبقة الثالثة في هذه البلاد حول طالب علم متمكن ممن أجيز من قبل العلماء للدعوة والتعليم.

وإلى هذا الحدِّ يعتبر الأمر مقبولاً، لكن الذي حدث أن بعض أهل الطبقة الثالثة في بعض البلاد صارت عَصَبة لهذا المعلِّم -الذين التفوا حوله- توالي فيه وتعادي من أجله، وتحمل نحوه عاطفة عمياء، وكأنها أعطته بيعة خفية بالسمع والطاعة والمناصرة في الصواب والخطأ.

فهو عندهم الشيخ المقدَّم الذي عن طريقه يفهمون كلام العلماء الكبار من السابقين واللاحقين، ولا يقبلون فهمًا إلا فهمه، ومن ثَمَّ إذا أطلقوا لفظ «**الشيخ**» في كلامهم كان المقصود به شيخهم.

وهذه مذهبية حديثة وحزبية متسترة، تحمل نذير خطر.

فإذا صدر من هذا الشيخ المتعصَّب له مخالفة ظاهرة للحق، لم تجد من هؤلاء المتعصِّبين إلا الخزي والخذلان للحق وأهله، والتحامي في الدفاع عن شيخهم بالباطل، وغض الطرف عن المخالفة، مع الجور والحيف ...إلخ ما سوف يأتي بيانه -إن شاء الله- في هذا الكتاب.

وقال الشوكاني ~ في «البدر الطالع» (٤٧٢/١) في ترجمة (علي بن قاسم حنش)[١٣]: «ومن محاسن كلامه الذي سمعته منه: الناس على طبقات ثلاث:

فالطبقة العالية: العلماء الأكابر وهم يعرفون الحق والباطل، وإن اختلفوا لم ينشأ عن اختلافهم الفتن، لعلمهم بما عند بعضهم بعضًا.

والطبقة السافلة: عامة على الفطرة لا ينفرون عن الحق وهم أتباع من يقتدون به إن كان محقًّا كانوا مثله ، وإن كان مبطلاً كانوا كذلك.

والطبقة المتوسطة: هي منشأ الشر وأصل الفتن الناشئة في الدين، وهم الذين لم يمعنوا في العلم حتى يرتقوا إلى رتبة الطبقة الأولى، ولا تركوه حتى يكونوا من أهل الطبقة السافلة.

([12]) وقال العلامة الألباني -رحمه الله-: "الآن في السعودية -في وجهة نظرنا- الدولة الوحيدة التي تتبنى في علم علمائها مبدأ العقيدة الإسلامية الصحيحة÷. (درس ٧٣٧ من سلسلة الهدى والنور).

([13]) قال الشوكاني: "وُلِد في شهر محرم سنة (١١٤٣)، ونشأ بوطنه ذيبين، ثم ارتحل إلى كوكبان وقرأ على علمائها، ثم وصل إلى صنعاء وأخذ عن أهلها، وتردد في الديار اليمنية، حتى عرف أكثرها أو كلها، واختُبر بأهلها خاصتهم وعامتهم...÷.

ثم قال: "وله اتصال بأكابر الناس وأصاغرهم قد استوت لديه طبقاتهم، كما استوت لديه الشدة والرخاء، والإقبال والإدبار، والمحبوب والمكروه، قد رأى نفسه أميرًا، كما رآها فقيرًا، ورآها تارة في اليفاع، وتارة في أخفض البقاع...÷. إلى أن قال: "ثم مات -رحمه الله تعالى- في شهر محرم سنة (١٢١٩هـ)÷. اهـ

فإنهم إذا رأوا أحدًا من أهل الطبقة العليا **يقول ما لا يعرفونه مما يُخالف عقائدهم التي أوقعهم فيها القصور فَوّقُوا إليه سهام التقريع ونسبوه إلى كل قول شنيع وغيَّروا فطر أهل الطبقة السفلى عن قبول الحق بتمويهات باطلة، فعند ذلك تقوم الفتن الدينية على ساق**، هذا معنى كلامه الذي سمعناه منه.

وقد صدق، فإن من تأمل ذلك وجده كذلك». اهـ

قلت: ومن هذه الطبقة المتوسطة يخرج أهل التعصُّب والهوى، والذين هم على تقسيمنا السابق من أهل الطبقة الثالثة.

واعلم -فهمك الله- إن لقب «**الشيخ**» -كمرتبة علمية- لا يستحقه إلا من بلغ مرتبة في العلم أو السن أو الشرف، كما سئل الشيخ ابن عثيمين ~: هل يصح أن تطلق كلمة الشيخ لكلِّ أحد من الناس، ولا سيما أن هذه الكلمة أصبحت متفشية، فأرجو توضيح ذلك؟

الجـواب: «كلمـة شيخ في اللُّغة العربية لا تكـون إلا للكبير، إما كبير السن، أو كبير القدر بعلمه أو ماله أو ما أشبه ذلك، ولا تطلق عـلى الصغير، لكن كما قلت: تفشت الآن حتى كاد يلقب بالشيخ من كان جاهلاً أو لم يعرف شيئًا، وهذا فيما أرى لا ينبغي؛ لأنك إذا أطلقت على هذا الشخص كلمة شيخ وهو جـاهل لا يعرف اغتر الناس به، وظنوا أن عنده علمًا، فرجعوا إليه في الاستفتاء وغير ذلك، وحصل بهـذا ضرر عظيم، وكثير من الناس -نسأل الله لنا ولهم الهداية- لا يبالي إذا سئل أن يفتي ولو بغير علم، لأنه يرى إذا قال: لا أدري؛ كان ذلك نقصًا في حقـه، والـواقع أن الإنسان إذا قال فيما لا يعلم: لا أدري، كان ذلك كمالاً في حقه، ولكن النفوس مجـبولة على محبة الظهور إلا من عصم الله Q، فالذي أرى: أنها لا تطلق كلمة شيخ إلا عـلى من يستحقها، إما لكبره، أو لشرفه وسيادته في قومه، أو لعلمه، وهـذا كـما كان بعـض الناس الآن يطلق كلمة إمـام عـلى عامة العلماء، حتى وإن كان هذا العالم من المقلدة يقول: هو إمام، وهـذا أيضًا لا ينبغي، ينبغي ألا تطلق لفظ إمام إلا على من استحق أن يكون إمامًا، وكان له أتباع[١٤]، وكان معتبرًا قوله بين المسلمين...»[١٥].اهـ

لكن المتعصِّبين في كل زمان ومكان -في واقع أمرهم- يعتبرون معلِّمهم ومربيهم هو: «الشيخ» عندهم -وإن كان صاحب بدعة-، أو أنه هو شيخهم اعتبارًا للعرف السائد أحيانًا بأن من تعلَّم علمًا -وإن كان دنيويًّا- على يد شخص ما، قيل: إن هذا الشخص هو شيخه في هذا العلم، بغض النظر عن حال هذا الشيخ من ناحية موافقة السنة والمرتبة العلمية، بل إن أصحاب الطرق الصوفية يقال عنهم «شيوخ» في

([14]) متبعون لا مُقلِّدون.

([15]) لقاء الباب المفتوح [١١٧] مع فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالى- التفريغ منقول من موقع الشبكة الإسلامية بواسطة سحاب.

عُـرف أتباعهم، وهكذا، ومن الأمثال السائرة للمتصوِّفة: «كُلّ شيخ وله طريقة».

ومهما كان فإن إطلاق لقب: «الشيوخ» على هؤلاء المتعصَّب لهم هــو باعـتبار حـال أتبـاعهم، لا باعتبار حقيقة أمرهم، فهؤلاء الشيوخ قد يكونون من العلماء الكبار، وقد يكونون من طلبة العلم، وقد يكونون من أهل الأهواء، فنحن نخاطب هؤلاء الأتباع بما استقر في عُرفهم واصطلاحهم مراعاة لواقع أمرهم، لعلهم يقبلون النصح.

واعلم -رحمك الله- أن التعصُّب داء خبيث ينتشر عن طريق المصاحبة والمجالسة، فإذا رأيت الشاب في أول نشوئه يجــالس المتعصِّبين من أهـل الأهواء ويميل قلبه إليهم فايئس منه[١٦]، والأمر كـما قال عبد الله بن شوذب: من نعمة الله على الشاب إذا تنسك أن يوافي صاحب سنــة يحمله عليها[١٧]، وقال أيوب: إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة[١٨]، وقال عمرو بن قيس الملائي: إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه، وإذا رأيته مع أهل البدع فايئس منه، فإن الشاب على أول نشوئه[١٩].

ويَجب أن يُعلم أن العلماء السلفيين الكبار، وطلبة العلم والدعاة السائرين على نهج السلف الملازمين غرز العلماء، إن تَعصَّب لهم أحد وأقرهم على أخطائهم فهم برآء من إقرار هذا التعصُّب، ولا يَرضون صنيع المتعصِّبين تجاههم -إن وُجِد-، مثلما كان المسيح # بريئًا من تعصُّب النصارى، ومثلما كان أمير المؤمنين علي -رضي الله عنـه- بريئًا من تعصُّب الشيعة الروافض، لذلك فإن هؤلاء المتعصِّبين من الباغين البرآء العنت، كما قال الإمـام البخاري ~ في الأدب المفرد (٣٢٢): حدثنا مُسدد، ثنا بشر بن المفضل، ثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حــوشب، عـن أسماء بنت يزيد قالت: قال النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بخياركم؟**» قالوا: بلى، قال: «**الذين إذا رؤوا ذُكر الله، أفلا أخبركم بشراركم؟**» قالوا: بلى، قال: «**المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون البرآء العنت**»[٢٠].

ومما لا ريب فيه أن التعصُّب للأئمة هو داء قديم جذوره، كما قال العلامة المحدث مقبل بن هادي ~ في كتابه «إقامة البرهان عـلى ضلال عبد الرحيم الطحان» (ص ١٠): «فأهل العلم يتوجعون

([16]) ولا مانع من مناصحته بين الحين والحين، على حسب ما تقتضي المصلحة.

([17]) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢٠٤/١) (٤٣) قال: أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث -وهو ابن الإمام أبي داود: حافظ رحالة- قال: ثنا أبو عمير النحاس -ثقة فاضل-، قال: ثنا ضمرة -وهو ابن ربيعة الفلسطيني: صدوق يهم قليلاً-، عن ابن شوذب -وهو صدوق عابد-؛ فهذا إسناد حسن.

([18]) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣٠).

([19]) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢٠٥/١) (٤٤).

([20]) وأخرجه أحمد في مسنده (٤٥٩/٦)، وإسحاق بن راهويه (١٨٠/٥)، وعبد بن حميد (١٥٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٢٥٥)، والطبراني (١٦٧/٢٤) من طريق ابن خثيم به، وإسناده حسن.

من هذه التعصُّبات من زمنٍ قديم حتى قال نشوان الحميري متوجعًا من أهل عصره، ومن تقليدهم الهادي المقبور بصَّعدة:

إذا جادلـــت بـــالقرآن خـــصمي ... أجـــاب مُـــجادلاً بقـــول يـــحيى

فقلـــت كـــلام ربـــك عنـــه وحـــي ... أتجعـــل قـــول يحيـــى عنـــه وحيـــا

فالتعصب منبوذ....» -إلى أن قال-: «ورب العزة يقول في كتابه الكريم: ﴿U T S R Q P O V W X ﴾ [النساء:٨٢]، **ونحن لا نتكلم في الأئمة بل نتكلم في التعصب الأعمى**».اهـ

قلت: وقد صدق أبو نعيم ~ حينما قال في الحلية (١١/٩): «قاتل الله التعصب ما أشنع إخساره».

ونذير الخطر على الدعوة السلفية الذي أشرت إليه آنفًا، هم هؤلاء الذين يعدون من طلبة العلم ممن لم يبلغوا مرتبة العلماء الكبار، ثم صار لهم أتباع وشوكة من الشباب والعامة، فإذ بهم يغترون بهذه العُصبة التي التفت حولهم ويظنون أنهم قد أوتوا القوة على مناطحة العلماء الكبار؛ فخالفوا العلماء الكبار بلا دليل ولا بُرهان، واستنفروا هذه العصبة كي يتحاموا في حماية بيضتهم من سهام أهل الحق.

وعلى الجانب الآخر؛ نَجد طائفة الحدادية التي تسعى لإسقاط العلماء الكبار باسم التحذير من أهل البدع، ويلبِّسون على الأغمار المتعصِّبين لهم بأن غرضهم هو إنكار البدع، فشعار هؤلاء: كلُّ من وقع في بدعة -كائنًا من كان- فهو مبتدع يجب التحذير منه وهجره، ولا تجوز مجالسته أو السلام عليه -عالمًا كان أو جاهلاً، مُخاصمًا كان أو ساكتًا- بغير مراعاة مصالح أو مفاسد في الهجر والتحذير، وقد صوَّبوا سهام الغدر بادي الرأي في نحور الأئمة السابقين ممن تلبس بعضهم بشيء من الأشعرية نحو ابن حجر والنووي والقرطبي -رحمهم الله-، ثم إذ بهم ينتقلون إلى أئمة كبار ممن لهم قدم صدق في الانتصار للمنهج السلفي مثل شيخ الإسلام ابن تيمية ~، وفي النهاية يصلون إلى مرادهم الحقيقي وهو إسقاط العلماء السلفيين المعاصرين أمثال المشايخ: ابن باز، والألباني، وابن عثيمين، ومقبل بن هادي، وصالح الفوزان، وربيع بن هادي، وأحمد النجمي، وعبد المحسن العباد، وغيرهم من أهل العلم -رحم الله الأموات منهم، وحفظ الأحياء-، وذلك حتى يتسع لهم المجال لنشر أهوائهم دون أن يجدوا أي معارضة من هؤلاء العلماء.

ومن أخطر صفات الحدادية -ومن شابههم- أنهم مولعون بالخلاف وبالانتصار للنفس بالباطل، ويصدق عليهم ما قاله الخطابي في كتابه «العزلة» (ص **٥٩**):

«وقال بعضهم إن من الناس مَنْ يُولع بالخلاف أبدًا حتى أنه يرى أن أفضل الأمور أن لا يرافق أحدًا، ولا يجامعه على رأي ولا يواتيه على محبة، ومن كان هذا عادته، فإنه لا يبصر الحق ولا ينصره ولا يعتقده دينًا ومذهبًا، إنما يتعصَّب لرأيه وينتقم لنفسه ويسعى في مرضاتها حتى إنك لو رمت أن ترضيه، وتوخيت أن توافقه على الرأي الذي يدعوك إليه تعمَّد لخلافك فيه، ولم يرض به حتى ينتقل

إلى نقيض قوله الأول فإن عدت في ذلك إلى وفاقه عاد فيه إلى خلافك[٢١].

قال أبو سليمان: فمن كان بهذه الحال فعليك بمباعدته والنفار عن قربه، فإن رضاه غاية لا تدرك، ومدى شأوه لا يلحق.

قال أبو سليمان: أخبرنا ابن التعياني قال: أخبرنا الزجاج قال: كنا عند المبرد أبي العباس محمد فوقف عليه رجل، فقال: أسألك عن مسألة من النحو؟ قال: لا، فقال: أخطأت، فقال: يا هذا كيف أكون مخطئًا أو مصيبًا، ولم أجبك عن المسألة بعد؟ فأقبل عليه أصحابه يعنِّفونه، فقال لهم: خلوا عنه، ولا تعرضوا له أنا أخبركم بقصته، هذا رجل يحب الخلاف، وقد خرج من بيته وقصدني على أن يخالفني في كلِّ شيء أقوله، ويخطئني فيه، فسبق لسانه بما كان في ضميره».اهـ

قلت: وهذا وصفٌ دقيق لحال الحدادية، فهذا حالهم بلا مواربة ولا التواء.

وهؤلاء الحدادية يدَّعون لأنفسهم أنهم على السلفية- شأنهم شأن كل الدعوات الضالة التي تخدع الناس باسم السلفية-، لكن هناك كواشف جلية تكشف لك عن حقيقة منهجهم الغالي في التبديع؛ ومِمَّن ذكر هذه الكواشف وفنَّد شبهاتِهم الواهية: فضيلة الشيخ العلامة ربيع بن هادي -حفظه الله- في عدة مقالات علمية قوية[٢٢].

ثم نجد في وسط هذا الخضم من الأهواء هؤلاء المتعصِّبين -مِمَّن ينتسبون بلسان مقالهم إلى المنهج السلفي- يدَّعون أن شيوخهم -من طلبة العلم أو الخطباء الوعَّاظ- الذين خالفوا العلماء الكبار هم في مصاف هؤلاء العلماء، ويعتبرون تحذير العلماء من أخطائهم ومخالفاتهم هو من جنس صنيع الحدادية الذين قد أولعوا بالخلاف، وصار شغلهم الشاغل تصيد زلاَّت العلماء الكبار ثم إسقاط أحكام التبديع الجزافية عليهم بلا تقوى ولا ورع، فإذ بهم يصيرون مع الحزبيين في خندق واحد يوجهون سهام النقد الجائر والطعن الفاجر على العلماء الكبار، وأصبحوا يسيرون على سنن الحزبيين في عدم قبول أي نقد صحيح من العلماء الكبار في شيوخهم كحال الذين لا يقبلون كلمة حق في سيد قطب، والبنا، والغزالي والقرضاوي، وغيرهم من شيوخ الحزبيين المقدَّسين عند أتباعهم.

وطائفة المتعصِّبين وطائفة الحدادية كلاهما يكمل بعضه بعضًا في السعي الحثيث لتمزيق أبناء الدعوة السلفية؛ وتقسيمهم إلى فرق متناحرة؛ ولكن الله مانعهم وحافظ دعوته كما وعد سبحانه.

واعلم -رحمك الله- أن ما سطرته في هذا الجزء ما هو إلا نصيحة وذكرى ابتغاء الإصلاح: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود: ٨٨]، فليس هذا الذي سطرته حربًا على أشخاص بأعيانهم ولا انتصارًا لأشخاص بأعيانهم، إنما هي نصيحة للمتعصِّبين لعلهم يثوبون إلى الحق، وانتصارًا للمنهج

([21]) وهذا نتيجة لانفراده عن أهل العلم، وعدم مراجعته لهم، وصدق الرسول × في قوله: "**إنما يأكل الذئب من القاصية**÷.

([22]) نحو ردوده -حفظه الله- على رأس الحدادية: محمود الحداد المصري، ثم على تابعه عبد اللطيف باشميل، ثم أخيرًا على فالح الحربي، وفوزي البحريني.

السلفي وعلمـائه وطلبته، فليحذر اللبيب أن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وأنا أعلم أن البعض -هـداني الله وإياهم لـسبيل الإنصاف- قد لا يروق لهم بعض ما سطرته في هذا الجزء لمخالفته لهوىً عندهم، لـكن عـزائي فيهم هو ما نقله ابن قتيبة في كتابه «السلطان» (١٩٠)(ص١٠٤): «وكان يُقال: أخوكَ من صَدَقَك، وأتاك من جهة عقلك لا من جهة هواك».

وقال الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٩٢): أنشدني سلامة بن عبادة قال أنشدني نفطويه:

إن المـــــــرآة لا تريـــــــك خـدوش وجهـك مـع صـداها
وكـــــذلك نفـــسك لا تريـــــك عيــوب نفــسك مــع هــواها

وأنشد الْمُثَّقب العَبدي:

فإمـــا أن تكـــون أخـــي بـــصدقٍ فـــأعرف منـــك غثِّـــي مـــن ســـميني
وإلا فـــــاطَّرِحني، واتخـــــذني عـــــدوا، أتقيـــــك وتتقينـــــي[٢٣]

ولا يعني عـدم التقليد أن يصير الأمر فوضىٰ بأن يخالف أهل الطبقتين الثانية والثالثة، ومن دونهما من العامة طبقة العلماء الراسخين بغير دليل واضح وحجة بينة وفقه سديد، ناهيك أن تأتي المخالفة في النوازل العامة من حروب، ومعاهدات مع أهل الكفر المناوئين، ودفـع صيـال أهـل أهواء علىٰ المنهج السلفي، وغيرها من الفتن والمدلهمات التي تحل بالأمة، ففي مثل هذه الحالات يجب التزام غرز العلماء الراسخين في العلم، ولا يجوز أبدًا مخالفتهم بدليل قاصر أو فهم كاسد أو مع عدم اطلاع كافٍ علىٰ أدلتهم التي أفتوا بها في هذه النازلة أو تلك، فإن الخروج عليهم في مثل هذه الحالات يُعد خروجًا علىٰ الجماعة وخرقًا للصف وإثارة للفتنة، والله المستعان.

«وإنما جمعت هذا المختصر المبارك -إن شاء الله تعالى- لمن صُنِّفت لهم التصانيف، وعنيت بهدايتهم العلماء، وهم من جمــع خمسة أوصـــاف معظمها: الإخلاص والفهم والإنصاف، ورابعها: وهو أقلها وجــودًا في هـذه الأعصار الحـرص عـلىٰ معـرفة الحق من أقـوال المختلفين[٢٤]، وشدة الداعي إلى ذلك الحامل علىٰ الصبر والطلب كثيرًا، وبذل الجهد في النظر علىٰ الإنصاف، ومفارقة العوائد، وطلب الأوابد، فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلَّما يعرفه إلا واحدًا بعد واحد، وإذا عظُم المطلوب قلَّ المساعد، فإن البدع قد كثرت، وكثرت الدعاة إليها، والتعويل عليها، وطالب الحق اليوم

(23) انظر: ديوانه (ص٤٢)، الأمالي الشجرية (٣٤٤/٢)، المقرب لابن عصفور (٢٥٤)، شرح رسالة أدب الكاتب لأبي القاسم الزَّجاجي (ص٥٧).

(24) أي: بعد تحريرها.

شبيه بطلابه في أيام الفترة، وهم سلمان الفارسي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأضرابهما -رضي الله عنهما-، فإنهم قدوة الطالب للحق، وفيهم له أعظم أسوة، فإنهم لَمَّا حرصوا على الحق، وبذلوا الجهد في طلبه بلَّغهم الله إليه، وأوقفهم عليه، وفازوا من بين العوالم الجمة، فكم أدرك الحق طالبه في زمن الفترة، وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النبوة فاعتبر بذلك، واقتد بأولئك فإن الحق ما زال مصونًا عزيزًا نفيسًا كريْمًا، لا ينال مع الإضراب عن طلبه وعدم التشوف والتشوق إلى سببه، ولا يهجم على المبطلين المعرضين، ولا يفاجئ أشباه الأنعام الغافلين، ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مبطل ولا جاهل، ولا بطَّال ولا غافل، وقد أخبر الله تعالى أن ذرء جهنم هم الغافلون، فإن لله وإنَّا إليه راجعون، ما أعظم المصاب بالغفلة، والمغتر بطول المهلة.

ومن أعجب العجائب: دعوى المقلِّدين للمعارف، ودعوى المتعصِّبين للإنصاف، وأمارة ذلك أنك تجد العوالم الكثيرة في لطائف المعارف المختلف فيها على رأي رجل واحد من القدماء في الأمصار العديدة، والأعصار المديدة، فلو كانوا في ترك التقليد كالأوائل لاشتد اختلافهم في الدقائق، ولم يتفقوا على كثرتهم وطول أزمانهم، وتباعد بلدانهم، واختلاف فطنهم، كما قضت بذلك العوائد العقلية الدائمة، ولو كان الجامع لفرقتهم مع كثرتهم هو الوقوف على الحقائق في تلك الدقائق، لكانوا أكثر من مشايخهم الأقدمين علمًا وتحقيقًا، وإنصافًا وتجويدًا، لكن المعلوم خلاف ذلك، فإياك أن تسلك هذه المسالك، فإن نشأة الإنسان على ما عليه أهل شارعه وبلده وجيرانه وأترابه صنيع[٢٥] أسقط الناس همة وأدناهم مرتبة، فلم يعجز عن ذلك صبيان النصارى واليهود، ولا ربات القدود والنهود، المستغرقات في تمهيد المهود.

وهذه هذه فأعطها حقها وانظر لنفسك وانج بها، وطالع قصة سلمان الفارسي وأضرابه، وانظر كيف كان صبرهم، واعرف قدر ما أنت طالب، فإنك طالب لأعلى المراتب...

ولا ينبغي أن يستوحش الظافر بالحق من كثرة المخالفين له، كما لا يستحوش الزاهد من كثرة الراغبين، ولا المتقي من كثرة العاصين، ولا الذاكر من كثرة الغافلين، بل ينبغي منه أن يستعظم المنة باختصاصه بذلك مع كثرة الجاهلين له، الغافلين عنه، وليوطن نفسه على ذلك، فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن هذا الدين بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**». رواه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريرة، ورواه الترمذي من حديث ابن مسعود، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه وعبد الله ابن أحمد من حديث أنس، وروى البخاري نحوه بغير لفظه من حديث ابن عمر.

([25]) في العادات والتقاليد المخالفة للأصول.

فنسأل الله أن يرحم غـربتنا في الحق، ويهدي ضالنا، ولا يردنا من أبواب رجائه ودعائه وطلبه محرومين، إنه مجيب الداعين، وهادي المهتدين، وأرحم الراحمين»[٢٦].

وينبغي أن يُعلم أن أئمة الجرح والتعديل من أهل السنة لا يفرحون بزلاَّت المخـالفين، ولا يسعون أبدًا لإسقاط عـالم أو طـالب عـلم انتسب إلى المنهج السلفي ثم خالفه، فليس غرضهم من التحذير من زلاَّت وأخطاء المخطئين هو التشهير أو التشفي أو إسقاط الغير، بل غـرضهم النصـح والإرشـاد وحماية الحق وأهله من مكائد أهل الأهواء، فأهل السنة هم أعرف الناس بالحق وأرحـم النـاس بالخلـق لـو كـانوا يعلمون، ﴿ | { ~ أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ [الجاثية: ٢٧].

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

وكتبه

أبو عبد الأعلى

خالد بن محمد بن عثمان المصري

انتهاء في ليلة الثلاثاء (١٨) شعبان (١٤٢٩هـ)

[õ õ õ]

([26]) **ما بين علامتي التنصيص**: من كتاب "إيثار الحق على الخلق، في رد الخلافات إلى المذهب الحق÷، لأبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بـ"ابن الوزير÷ (ص٢٧-٣٠).